

الباب الأول / الفصل السابع: دولة المدينة وحماية الجبهة الداخلية والخارجية

الْكِتَابَ وَمُهِمِّنَا عَلَيْهِ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَآءَاتِنِكُمْ ﴿١﴾

ثالثاً: هوية الإسلام المتميزة:

في خضم صراع الإسلام الفكري مع اليهود في المدينة، فقد أخذت آيات القرآن الكريم تنزل على الرسول ﷺ لتؤكد تميز الإسلام عن الديانات السماوية الأخرى، وبخاصة اليهودية، ولتبرير البعد العربي في الرسالة الإسلامية. وكانت أهم التشريعات التي نزلت على الرسول ﷺ في السنوات الأولى من هجرته إلى المدينة ما يلي:

١. تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة:

لقد كان المسلمون يتوجهون في صلاتهم إلى بيت المقدس: غير أن الرسول ﷺ كان يتطلع إلى نزول تشريع يجعل القبلة إلى الكعبة/ لأنه البيت العتيق الذي بناه إبراهيم لعبادة الله تعالى. وقد استجاب الله تعالى إلى أمنية الرسول ﷺ فنزل عليه الوحي بتحويل القبلة إلى الكعبة، وكان ذلك بعد مضي ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً على هجرته إلى المدينة (٢).

جاء في القرآن الكريم: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ (٣). وقد روى البخاري حديثاً يوضح كيفية تحويل القبلة إلى الكعبة وموقف اليهود من ذلك فقال: "عن البراء ﷺ عنه أن النبي ﷺ كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده من الأنصار وأنه صلى قبل بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت وأنه صلى أول صلاة صلاها العصر، وصلى معه قوم فخرج رجل فصلى معه فمر على أهل مسجد وهم راكعون فقال أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قبل مكة فداروا كما هم قبل البيت. وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلي قبل بيت المقدس، وأهل الكتاب، فلما ولي وجهه قبل البيت، أنكروا ذلك" (٤).

(١) سورة المائدة، الآية ٤٨.

(٢) ابن هشام: السيرة، ق ١، ص ٥٥٠، ابن المبارك: التجريد الصحيح لأحاديث الجامع الصحيح، ج ١، ص ١٢.

(٣) سورة البقرة، الآية ١٤٤.

(٤) ابن المبارك: التجريد الصحيح، ج ١، ص ١١ - ١٢.

بيت المقدس
الكعبة
١٦
١٧ شهر

لقد رد القرآن الكريم على اعتراض اليهود في تحويل القبلة واستنكارهم له بقوله: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْتُمْ عَلَىٰ أَنْ كَانُوا عَلَيْهَا قُلِ اللَّهُ يَتَّبِعُ الْمُتَّقِينَ ﴾ (١)، كما أشار إلى استحالة كسب اليهود لإنباع قبلة المسلمين بقوله: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَتَّبِعُوا فَيَقُولُوا نَسْلَخُ مِنْهُمَا مَا أَتَتْهُمْ بِهِ مِنْ نَبَأٍ لَوْ أَنَّهُمْ لَمَنِ السُّعْيَاءُ ﴾ (٢).
يَتَّبِعُ مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣) ﴿ (١) كما أشار إلى استحالة كسب اليهود لإنباع قبلة المسلمين بقوله: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَتَّبِعُوا فَيَقُولُوا نَسْلَخُ مِنْهُمَا مَا أَتَتْهُمْ بِهِ مِنْ نَبَأٍ لَوْ أَنَّهُمْ لَمَنِ السُّعْيَاءُ ﴾ (٢).
يَتَّبِعُ مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣) ﴿ (٢)﴾

2. الأذان وسيلة للدعوة إلى الصلاة:

كان المسلمون بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة يجتمعون للصلاة في المسجد في الوقت المحدد لها من غير دعوة مخصوصة، "فتكلموا يوماً في ذلك فقال بعضهم اتخذوا ناقوساً مثل ناقوس النصارى" وقال بعضهم، بل بوقاً مثل قرن اليهود، فقال عمر: أولاً تبعثون رجلاً ينادي بالصلاة؟ فقال رسول الله ﷺ: يا بلال قم فنادي بالصلاة" (٣).

ناقوس
النصارى

بوقاً مثل
قرن اليهود

وقد أوضح ابن إسحاق أن مسألة الدعوة إلى الصلاة قد شغلت فكر رسول الله ﷺ والمسلمين فترة من الوقت "فهم رسول الله ﷺ حين قدمها - المدينة - أن يجعل بوقاً كبوق يهود الذي يدعون به لصلاتهم، ثم كرهه، ثم أمر بالناقوس، فنحت ليضرب به للمسلمين للصلاة وبينما هم على ذلك" (٤)، إذ جاء أحد المسلمين من الأنصار ويدعى عبد الله بن زيد فاقترح صيغة الأذان المعروفة لتكون وسيلة لدعوة المسلمين للصلاة فاستحسن الرسول ﷺ هذا المقترح الذي يؤكد تميز المسلمين عن غيرهم، وقال له: "قم إلى بلال فآلقها عليه، فليؤذن بها، فإنه أندى صوتاً منك" (٥).

عبد الله بن زيد

زيد اقترح

صيغة

الأذان

ويظهر مما أورده ابن سعد في طبقاته أن الأمر باتخاذ الأذان وسيلة للدعوة إلى الصلاة، قد جاء بعد تحويل القبلة إلى الكعبة أي في أواخر السنة الثانية للهجرة (٦).

(1) سورة البقرة، الآية 142:

(2) سورة البقرة، الآية 145:



3. فرض صيام شهر رمضان:

إن الصيام بمعنى الامتناع عن تناول الطعام طوال النهار كان معروفاً عند العرب وعند الأمم الأخرى قبل الإسلام. وقد أورد البخاري حديثاً عن عائشة رضي الله عنها أن قريشاً كانت تصوم يوم عاشوراء قبل الإسلام " وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصومه، فلما قدم المدينة صامه، وأمر بصيامه، فلما فرض رمضان ترك يوم عاشوراء، فمن شاء صامه، ومن شاء تركه" (1).

وقد أشير إلى أن اليهود كانوا يصومون يوم عاشوراء ف فسألهم الرسول صلى الله عليه وسلم حين قدومه للمدينة عن سبب صومهم له فأخبروه أنه اليوم الذي غرق الله فيه آل فرعون ونجى موسى ومن معه منهم. فقال: نحن أحق بموسى منهم، فصام وأمر الناس بصومه" (2).

يبدو مما تقدم أن أمر الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين من أهل المدينة بصيام عاشوراء بعد أن وجد أن اليهود يصومونه جاء تأكيداً لعادة دينية كانت تمارسها قريش ويمارسها هو قبل الهجرة ورغبة في توثيق العلاقات مع اليهود.

وفي شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة، على رأس ثمانية عشر شهراً من قدوم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، أي بعد تحويل القبلة إلى الكعبة بشهر، فرض صيام شهر رمضان (3)، ويظهر من آيات القرآن الكريم أن الله قد اختار هذا الشهر ليكون شهر الصيام لأنه الشهر الذي نزل فيه القرآن أول مرة على الرسول صلى الله عليه وسلم في غار حراء: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ (4).

وقد لوحظ أن فرض الصوم في شهر رمضان هو متابعة لتقاليد كان يمارسها الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة، وهي جزء من السياسة العامة في التوجه إلى مكة ومتابعة تقاليدھا الدينية القديمة السليمة بعد تطهيرها من مفاصد الشرك وجعلها إسلامية لله وحده، والعودة إلى دين إبراهيم (5). وبذلك أصبح للمسلمين صيامهم الخاص بهم في شهر رمضان المبارك، وبرزت شخصيتهم الدينية المتميزة، قبل أن يتوجهوا إلى محاربة قريش في معركة بدر في السابع من شهر رمضان نفسه.

(1) ابن المبارك: التجريد الصريح، ج 1، ص 126.

(2) الطبري: تاريخ، ج 2، ص 417.

(3) المصدر نفسه، ج 2، ص 417: ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 248.

(4) سورة البقرة، الآية 185.

4. الصراع المسلح على الجبهة الداخلية والخارجية:

يبدو أن تمييز المسلمين في عقيدتهم وعبادتهم، وانتصارهم الكبير على قبيلة قريش الذي تحقق في معركة بدر، قد أثار الخوف والهلع في نفوس أعداء الدعوة الإسلامية على الجبهة الخارجية والداخلية. ففي الوقت الذي شرعت فيه قريش في التهيؤ والاستعداد للمعركة القادمة كي تثار للهزيمة التي إصابتها بدر، أخذ المنافقون واليهود بالتشكيك في أهمية انتصار المسلمين.

وإذ كان بإمكان الرسول ﷺ أن يترك أمر قريش ريثما تستعد لمواجهة بعد فترة من الزمن، فإنه لم يكن يوسع أن يترك اليهود يمارسون حريتهم بالتعاون مع المنافقين في تهديد الجبهة الداخلية لدولة المدينة.

ويلاحظ أن الرسول ﷺ لم يكن راغبا في الدخول في مواجهة مسلحة مع جميع يهود المدينة، وإنما العمل على حصر المواجهة مع الفئة القليلة التي تنقض عهودها معه أو تتحدها بصورة لا يبقى معها أمامه من خيار سوى اللجوء إلى القوة لتسوية الخلاف معها.

لقد وصف بعض (المستشرقين) سياسة الرسول ﷺ تجاه اليهود بأنها سياسة شديدة كانت تستهدف طرد جميع اليهود من المدينة "لا لسبب إلا لأنهم يهود"⁽¹⁾. غير أن التحقيق العلمي المنصف يثبت عكس ذلك، إذ لم تكن من عادة الرسول ﷺ كما يقول المستشرق وات: "اتباع سياسة قاسية بهذا الشكل، بل كانت نظراته معتدلة، يحسب حساب المشاكل الرئيسية التي تؤثر في الحالة الراهنة والأهداف البعيدة التي يسعى إلى تحقيقها. واعتمادا على هذه المعطيات كان يكيف موقفه يوما بيوم منسجما مع العوامل المتغيرة التي تنتج عن الحوادث اليومية"⁽²⁾.

في ضوء ما تقدم، فقد تعامل الرسول ﷺ مع القبائل اليهودية كل على حدة، ولم يحاول أن يمد صراعه مع إحداها ليشمل بقية القبائل الأخرى طالما بقيت على الحياد على الرغم من إدراكه العميق للمشاعر السلبية التي كان يحملها اليهود كافة، له ولدعوته، وهكذا فقد بدأ الصراع المسلح بين المسلمين ويهود المدينة من قبيلة بني قينقاع في السنة الثانية للهجرة لينتهي مع يهود بني قريظة في السنة السادسة، حيث تمت تصفية الوجود المسلح لليهود في المدينة، وقد تخلل هذا الصراع بعض المعارك على الجبهة الخارجية مع قريش وبعض القبائل البدوية كان أخطرها معركة أحد

(1) وات: محمد في المدينة، ص 330.

(2) المصدر نفسه، ص 330-331.

الجبهة

الداخلية

لهود منافقين

الجبهة

الخارجية

مركب

قريش

٥٢

طالما بقيت

يهود بني

قينقاع

يهود بني

نضير

يتضح مما تقدم أن الرجال الذين كان يبعثهم الرسول ﷺ لجباية الصدقات كانوا جباة معلمين، يمارسون تعليم الناس وإرشادهم إلى جانب جباية الصدقات وهؤلاء الجباة المعلمون "لم يسلوا يد رؤساء القبائل حين وقفوا إلى جوارهم، بل كانوا يتعاونون معهم تعاوناً تاماً، وفي بعض الأحيان يضعون أنفسهم تحت حمايتهم"⁽¹⁾. وكان هؤلاء الجباة يقومون بتوزيع ما تجمع لديهم من الأموال على الفقراء توزيعاً محلياً ولا يرسلون شيئاً منه إلى المدينة إلا ما فاض عن الحاجة⁽²⁾.

وهكذا ما كاد العام التاسع للهجرة ينتهي ويدخل العام العاشر حتى كان النظام الإسلامي وسلطة الدولة العربية الإسلامية قد عمت معظم أنحاء شبه الجزيرة العربية، وبدأ العرب ينعمون بنعمة الوحدة والاستقرار. فكان حرياً بهم أن يتوجهوا إلى مكة في موسم الحج ليشكروا الله على فضله ونعمته، وقد قاد الرسول ﷺ بنفسه المسلمين لأداء فريضة الحج في هذا العام، وكانت تلك أول مرة يقام فيها الحج على الطريقة الإسلامية دون أن يشاركهم فيه أحد من المشركين.

إحدى عشر: حجة الوداع:

خرج الرسول ﷺ من المدينة في 25 ذي القعدة سنة 10 للهجرة لأداء فريضة الحج، وهي أول مرة يؤدي فيها هذه الفريضة⁽³⁾، وكان الرسول ﷺ قد "أذن الناس بذلك، فقدم المدينة بشر كثير يأتون برسول الله ﷺ في حجته"⁽⁴⁾. ويبدو أنه كان بينهم زعماء القبائل وأشرافهم، فخرج إلى مكة ومعه أشراف من أشراف الناس⁽⁵⁾ كما يقول ابن إسحاق، حتى وصل مكة في 4 ذي الحجة سنة 10هـ⁽⁶⁾.

وقد أسهبت كتب التاريخ والحديث في تقديم تفاصيل عما قام به الرسول ﷺ في هذه المناسبة لتعليم الناس كيفية أداء مناسك الحج، وتعريفهم بأمور دينهم⁽⁷⁾، وكان مسك الختام في ذلك هو خطبة الرسول ﷺ بعرفة. فكان مما قال فيها: "أيها الناس إسمعوا قولي، فإنني لا أدري لعلني لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً، أيها

(1) الشريف: مكة والمدينة، ص 538.

(2) المرجع نفسه، ص 538.

(3) ابن هشام: السيرة، ق 2، ص 601.

(4) ابن سعد: الطبقات، ج 2، ص 172 - 173.

(5) ابن هشام: السيرة، ق 2، ص 601.

(6) ابن سعد: الطبقات، ج 2، ص 175.

(7) ابن هشام: السيرة، ق 2، ص 601 - 606، ابن سعد، الطبقات، ج 2، ص 172 - 189، الطبري:

تاريخ، ج 3، ص 148 - 152، ابن كثير: السيرة النبوية، ج 2، ص 360 - 440.

تاريخهم

الباب الأول / الفصل الثامن: امتداد دولة المدينة وسيادة الإسلام

تعاريفاً أو

مفردات

أو لماذا

صحة

بكذا

حجة

الإسلام،

حجة

الوداع،

حجة فراق

البلاغة

الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم، لا تظلمون، قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله، وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع،.... أما بعد، أيها الناس، فإن الشيطان قد يشتر من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه أن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم... فاعقلوا أيها الناس قولي، فإني قد بلغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، أمراً بينا، كتاب الله وسنة نبيه، أيها الناس، اسمعوا قولي واعقلوه تعلمن أن كل مسلم أخو المسلم، وإن المسلمين أخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم، اللهم هل بلغت؟... فقال الناس اللهم نعم، قال رسول الله ﷺ: اللهم أشهد⁽¹⁾.

لقد وصفت حجة الرسول ﷺ هذه بـ "حجة البلاغ"⁽²⁾ ربما لأن الرسول ﷺ حينما انتهى من خطبته التي بين فيها أحكام الإسلام العامة تساءل قائلاً: اللهم هل بلغت؟ كما كان المسلمون يسمونها "حجة الإسلام"، ربما لأنها كانت أول مرة يحج فيها المسلمون لوحدهم دون أن يحضرها أي مشرك وقد تمت على وفق المناسك التي بينها الرسول ﷺ لهم. وقد اشتهرت هذه الحجة بين الناس بعد ذلك باسم "حجة الوداع" لأن الرسول ﷺ قد ودع فيها أمته قبل وفاته فكانت حجته الأولى والأخيرة، وكان ابن عباس يكره أن يقال حجة الوداع، ويقول حجة الإسلام⁽⁴⁾.

وقد كانت هذه الحجة ذروة ما وصله المسلمون في عصر الرسالة من وحدة وقوة وكمال، فكانت حجة الإسلام، وحجة البلاغ، وحجة الوداع، وكان أعظم مأتم في هذه المناسبة أنه نزلت على الرسول ﷺ فيها آية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾⁽⁵⁾.

لقد أورد ابن كثير أن رجلاً من اليهود جاء إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: "يا

(1) ابن هشام: السيرة، ق 2، ص 603 - 604.

(2) الطبري: تاريخ، ج 3، ص 152.

(3) ابن سعد: الطبقات، ج 2، ص 172.

(4) المصدر نفسه، ج 2، ص 172.

(5) سورة المائدة، الآية 3، ابن سعد: الطبقات، ج 2، ص 188، ابن كثير: السيرة النبوية، ج 2، ص 418.

الباب الأول / الفصل الثامن: امتداد دولة المدينة وسيادة الإسلام

أمير المؤمنين إنكم تقرأون آية - اليوم أكملت لكم دينكم - في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً^(١)، وقد فات ذلك اليهودي أن اليوم الذي نزلت فيه هذه الآية الكريمة هو عشية يوم عرفة، إذ يستعد المسلمون فيه للاحتفال بعيد الأضحى المبارك لمدة أربعة أيام.

اثنا عشر: نهاية عصر الرسالة:

عاد الرسول ﷺ بعد أداء فريضة الحج إلى المدينة ف قضى فيها بقية ذي الحجة والمحرم وصفر. ثم قرر أن يبعث أسامة بن زيد على رأس سرية إلى بلاد الشام وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين وذلك للثأر لوالده ولبقية شهداء معركة مؤتة. وقد حشد الرسول ﷺ لهذه الحملة عدداً كبيراً من المهاجرين والأنصار^(٢). غير أن هذه الحملة ما كادت تغادر المدينة حتى بدأ وجع الرسول ﷺ فترشت عن الحركة بانتظار تحسن صحة الرسول ﷺ^(٣).

وقد أورد الطبري روايات تشير إلى تحرك الأنبياء الكذابين خلال هذه الفترة فغلب مسيلمة الكذاب على اليمامة والأسود على اليمن وعسكر طليحة بن خويلد بسميراء، غير أنه لم تتخذ إجراءات فعالة ضدهم بسبب مرض الرسول ﷺ^(٤). لقد بدأ وجع الرسول ﷺ في أواخر شهر صفر من سنة 11 للهجرة^(٥)، وكانت أهم الأعراض التي ظهرت من مرضه هي آلام شديدة في الرأس وارتفاع في درجات حرارة الجسم، مما كان يضعف الرسول ﷺ عن الحركة، حتى إنه لم يعد قادراً على إمامة المسلمين في الصلاة، فطلب من أبي بكر الصديق أن يؤم الناس في الصلاة^(٦). وقد ذكر ابن سعد أن مدة المرض هذه قد لازمت الرسول ﷺ ثلاثة عشر يوماً، ابتدأت في يوم الأربعاء في آخر شهر صفر، وانتهت بوفاة الرسول ﷺ يوم الاثنين في 12 ربيع الأول سنة 11 للهجرة الموافقة لسنة 632م عن عمر ناهز الـ 63 سنة^(٧).

ويبدو أن وفاة الرسول ﷺ قد فاجأت معظم المسلمين مفاجأة كبيرة، لأنه على الرغم من مرضه كان قادراً على الذهاب للمسجد وأداء الصلاة قاعداً، وكانت آخر مرة

(1) ابن كثير: السيرة النبوية، ج 2، ص 418.

(2) ابن هشام: السيرة، ق 2، ص 606، ابن سعد: الطبقات، ج 2، ص 190 - 191.

(3) المصدر نفسه، ق 2، ص 650.

(4) الطبري: تاريخ، ج 3، ص 186.

(5) ابن هشام: السيرة، ق 2، ص 642.

(6) ابن سعد: الطبقات، ج 3، ص 206 - 218.

(7) المصدر نفسه، ج 2، ص 206.

الباب الأول / الفصل الثامن: امتداد دولة المدينة وسيادة الإسلام

297

شارك المسلمين فيها صلاتهم العامة هو يوم وفاته⁽¹⁾. فلما أعلن عن خبر وفاة الرسول ﷺ رفض الناس تصديق ذلك، وكان من بين هؤلاء الناس عمر بن الخطاب. فوقف أبو بكر الصديق في الناس خطيباً، وكان قد تأكد بنفسه من وفاة الرسول ﷺ فقال: "إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت... ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾" ثم تلاها: ﴿قُلْ أَنْزَلْنَاهُ عَلَىٰ أَعْيُنِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾⁽²⁾. فلما سمع الناس هذه الآية كانوا كأنما يسمعونها لأول مرة فأخذوا يرددونها، حتى إن عمر بن الخطاب قال: "والله ما إن سمعت أبا بكر تلاها، فعمرت حتى وقعت إلى الأرض ما تحملني رجلاي، وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات"⁽³⁾.

لقد توفي الرسول ﷺ، بعد أن بلغ رسالة ربه، فنقل العرب من الشرك إلى الإسلام، وجاهد بلسانه وسيفه حتى تمكن من تكوين أمة واحدة ودولة واحدة، ولم يغادر قومه إلا وقد وضع بين أيديهم رسالة سامية، لا تقتصر أهدافها على العرب وحدهم وإنما تسعى إلى هداية بني الإنسان كافة.

وربما كان من نافلة القول الإشارة إلى أن تحقيق الأهداف الأنفة الذكر كان يتطلب قدرات عالية تتجاوز حدود قدرات عظماء الرجال على وفق المقاييس المتعارف عليها. لذا فقد أكد القرآن الكريم ذلك بصورة جلية حينما قال: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾⁽⁴⁾.

إن الاعتراف بعظمة شخصية الرسول ﷺ والإنجازات التي حققها لم يعد مقصوراً على الباحثين المسلمين وحدهم، وإنما تجاوزهم إلى غير المسلمين بعد أن تقدمت وسائل البحث العلمي، فلا غرابة أن يتوصل مؤرخ غربي مثل مونتغمري وات إلى أنه "كلما فكرنا في تاريخ محمد، وتاريخ أوائل الإسلام، كلما تملكنا الدهول أمام عظمة مثل هذا العمل، ولا شك أن الظروف كانت مواتية لمحمد فأتاح له فرصاً للنجاح لم تتحها لسوى القليل من الرجال، غير أن الرجل كان على مستوى الظروف تماماً، فلو لم

(1) المصدر نفسه، ج 2، ص 217 - 218.

(2) ابن هشام: السيرة، ق 2، ص 656.

(3) المصدر نفسه، ق 2، ص 656.

(4) سورة الأحزاب، الآية 40.

الباب الأول / الفصل الثامن: امتداد دولة المدينة وسيادة الإسلام

يكن نبياً ورجل دولة وإدارة، ولو لم يضع ثقته بالله ويقتنع بشكل ثابت أن الله أرسله لما كتب فصلاً مهماً من تاريخ الإنسانية. ولي أمل أن هذه الدراسة عن حياة محمد يمكنها أن تساعد على إثارة الاهتمام من جديد برجل هو من أعظم رجال أبناء آدم^(١).

وهكذا فقد انتهى عصر الوحي والرسالة بوفاة الرسول ﷺ الذي طبع ذاك العصر بطابعه، ليفسح المجال أمام أصحابه كيبدأوا عصراً جديداً يسترشد بهدى المبادئ التي جاهد طويلاً من أجل ترسيخها في نفوسهم وعلى ربوع أرضهم التي شرفتها رسالة السماء.

مكتبة أحمد

السياسي ويبادرون فور سماعهم بوفاة الرسول ﷺ إلى الاجتماع في سقيفة بني ساعدة، وهم أحد عشائر الخزرج لبحث مسألة من يخلف الرسول ﷺ في قيادة الدولة⁽¹⁾.

ثانياً: اجتماع السقيفة وانتخاب أبي بكر ﷺ:

تشير المصادر إلى أن بني ساعدة من الخزرج قد بادروا إلى عقد اجتماع في سقيفتهم في نفس اليوم الذي توفي فيه الرسول ﷺ أي في يوم الاثنين 12 ربيع الأول سنة 11هـ/632م لترشيح زعيمهم سعد بن عباد لخلافة الرسول ﷺ في قيادة الدولة⁽²⁾.

وسقيفة بني ساعدة هي "ظلة غير واسعة على فسحة من الأرض في منطقة خطط بني ساعدة في الأطراف الشمالية من مسجد الرسول" ... ولم يرد ذكر اجتماع عام فيها في زمن الرسول، الأمر الذي يدل على أنها كانت في الأصل خاصة ببني ساعدة دون غيرهم، وإن الاجتماع لم يستوعب كافة الأنصار الذين كان عددهم كبيراً⁽³⁾.

ويبدو من استقراء النصوص التي وصلتنا عن هذا الاجتماع أن بني ساعدة لم يعدوا لهذا الاجتماع أعداداً جيداً، ولم يدعوا لحضوره كبار الصحابة وبخاصة من المهاجرين، مما يدل على أنهم لم يكونوا واثقين من أن مرشحهم سيخطى بالقبول والمبايعة⁽⁴⁾.

وحين وصلت أخبار هذا الاجتماع إلى عمر بن الخطاب، أرسل إلى أبي بكر الصديق يدعوه لحضوره لخطورة ما قد يترتب عليه من نتائج. وفي الطريق لقياً عبدة بن الجراح فصحبهما إلى مكان الاجتماع⁽⁵⁾.

لقد كانت حجة سعد بن عباد في ترشيح نفسه للخلافة، أن الأنصار أحق بهذا الأمر من المهاجرين لأنهم أهل المدينة، وأنصار الإسلام، وإنهم "أهل العز والثروة. وأولوا العدد والمنعة والتجربة"⁽⁶⁾.

غير أن أبا بكر الصديق أوضح في كلمته أن المهاجرين من قريش هم أولى من الأنصار بخلافة الرسول ﷺ لأنهم: "أول من عبد الله في الأرض، وآمن بالله وبالرسول، وهم أولياؤه وعشيرته، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده، ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم"⁽⁷⁾.

(1) ابن هشام: السيرة، ق 2، ص 659.

(2) المصدر نفسه، ق 2، ص 656 - 657، الطبري: تاريخ، ج 3، ص 217 - 218.

(3) العلي: الدولة في عهد الرسول، ج 2، ص 434.

(4) ابن هشام: السيرة، ق 2، ص 656 - 659.

(5) المصدر نفسه، ق 2، ص 656 - 657، الطبري: تاريخ، ج 3، ص 202.

(6) الطبري: تاريخ، ج 3، ص 220.

(7) المصدر نفسه، ج 3، ص 220.

الباب الثاني / الفصل الأول: الخلافة الراشدة في عهد أبي بكر الصديق

وقد أوضح عمر بن الخطاب للأَنْصار أن مسألة اختيار خليفة للرسول ليست مسألة خاصة بالمهاجرين والأنصار وحدهم. وإنما هي مسألة تهتم جميع العرب. لذا فقد خاطبهم قائلاً: "والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم وبنبيها من غيركم، ولكن العرب لا تمتنع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم وولي أمورهم منهم" (1).

ويبدو أن حجج أبي بكر وعمر قد أضعف من موقف سعد بن عباد فاقترح الحباب ابن المنذر أن يكون على رئاسة الدولة أمير من الأنصار وأمير من المهاجرين. فرفض عمر ابن الخطاب هذا الاقتراح على الفور بقوله: "هيهات لا يجتمع اثنان في قرن" (2). أي أن ذلك غير ممكن من الناحية العملية، وقد يؤدي إلى الانقسام والتفرقة. وهنا دب الاختلاف في صفوف مؤيدي سعد بن عباد فأعلن بشير بن سعد من الخزرج أن محمداً ﷺ من قريش، وقومه أحق به وأولى (3).

وهنا بادر أبو بكر الصديق بدعوة الحضور إلى مبايعة عمر بن الخطاب أو أبي عبيدة بن الجراح، إلا أنهما رفضا ذلك، وقالوا: "والله لا نتولى هذا الأمر عليك، فإنك أفضل المهاجرين، وثاني اثنين إذ هما في الغار، وخليفة رسول الله على الصلاة، والصلاة أفضل دين المسلمين، فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك أبسط يدك نبايعك. فلما ذهب لبايعاه سبقهما إليه بشير بن سعد فبايعه" (4).

وهكذا فقد كان أول من بايع أبا بكر الصديق بالخلافة رجل من الأنصار، فلما رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد وما تدعو إليه قريش، وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عباد، قال بعضهم لبعض، وفيهم أسيد بن حضير - وكان أحد النقباء -، والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة، ولا جعلوا لكم منهم فيها نصيباً أبداً فقوموا فبايعوا أبا بكر، فقاموا إليه فبايعوه" (5).

وما كاد خبر مبايعة أبي بكر الصديق ينتشر في المدينة حتى أقبلت قبيلة أسلم "بجماعتها حتى تضايق بهم السكك، فبايعوا أبا بكر، فكان عمر يقول: ما هو إلا أن رأيت أسلم، فأيقنت بالنصر" (6).

وفي اليوم التالي لبيعة السقيفة جلس أبو بكر الصديق على المنبر في مسجد

(1) المصدر نفسه، ج 3، ص 220.

(2) المصدر نفسه، ج 3، ص 220.

(3) المصدر نفسه، ج 3، ص 221.

(4) المصدر نفسه، ج 3، ص 221.

(5) المصدر نفسه، ج 3، ص 221-222.

(6) المصدر نفسه، ج 3، ص 222.

الرسول ﷺ لتلقي البيعة العامة، فبايعه عموم المهاجرين والأنصار بيعة الخلافة^(١). ويبدو أن خلافة أبي بكر الصديق كانت موضع قبول ورضى من قبل جميع الصحابة من المهاجرين والأنصار، وإنهم قد اقبلوا على مبايعته والتعاون معه من دون تردد، وهو الأمر الذي ينسجم مع روح الأخوة والصحبة التي كانت بينهم^(٢). أما الروايات التي تشير إلى خلاف ذلك فمن المرجح أنها من وضع العصور التالية على عصر الرسالة والراشدين^(٣). وإن مما يؤكد ذلك ما روى عن علي بن أبي طالب في نهج البلاغة: "... وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإن اجتمعوا على رجل وسموه إماماً كان ذلك لله رضا، فإن خرج من أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردوه إلى ما خرج منه، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين"^(٤). وهكذا فقد أصبح أبو بكر الصديق أول خليفة للمسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ.

وقد عرفت الخلافة بأنها "خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسية الدنيا"^(٥) فكان أبو بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ في أمته. وقد أصبح من المقرر لدى الفقهاء استناداً إلى هذه السابقة التاريخية أنه لا يجوز لأحد أن يتولى الخلافة إلا عن طريق البيعة، وهي: "العهد على الطاعة كان المبايع يعاهد أميره على أنه يسلم له النظر في أمر نفسه وأمور المسلمين لا ينازعه في شيء من ذلك، ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على لمنشط والمكره"^(٦).

ويلاحظ على هذا التعريف للبيعة أنه لم يبرز ما تنطوي عليه البيعة من اعتراف أن الأمة مصدر السلطات، وإنه لا يجوز للخليفة أن يتولى السلطة إلا بموافقة أبناء الأمة التي يعبرون عنها عن طريق البيعة. وقد أوضح عمر بن الخطاب أهمية هذا معنى من البيعة بقوله: "فمن بايع رجلاً عن غير مشورة من المسلمين فإنه لا بيعة له ولا الذي بايعه"^(٧).

وقد جاءت خطبة أبي بكر الصديق التي ألقاها في المسجد بعد مبايعته "بيعة عامة" لتعبر عن فهمه للخلافة وما ترتبه عليه من حقوق والتزامات، فقال: "أيها الناس،

(١) المصدر نفسه، ج ٣، ص 210.

(٢) المصدر نفسه، ج ٣، ص 207.

(٣) المصدر نفسه، ج ٣، ص 202 - 203، طه حسين: الشيخان، مصر 1969، ص 36 - 39.

(٤) ابن أبي حديد: شرح نهج البلاغة، مصر 1961، ج 14، ص 35.

(٥) ابن خلدون: المقدمة، بيروت، ط 3، ص 191.

(٦) المصدر نفسه، ص 209.